موضوعية الرمز ودلالته
فى نماذج من شعر المهاجر

د. عمر عبد المعبود عبد الرحمن
الأستاذ المساعد بالكلية

معنى الرمز فى اللغة :

فى القاموس المحيط ، الرمز : الاشارة أو الايماء بالشفتين أو العينين أو الحاجبين أو اليد أو اللسان(١) .

وفى الصحاح ، الرمز : الاشارة أو الايماء بالشفتين والحاجب(٢) .

والرمز عند « ابن رشيق » : هو الكلام الخفى الذى لا يكاد يفهم ، ثم استعمل حتى صار كالاشارة(٣) .

وهكذا لو استعرضنا مفهوم الرمز ودلالته كما ورد فى القواميس اللغوية العربية ، وكتب النقد القديم ، لأدركنا أن دلالة الرمز لا تبتعد عن معنى : الاشارة ، والاشارة كما هو معروف تكون بطرق عديدة ووسائل شتى .

وقد تردد لفظ « الاشارة » بمعنى « الرمز » كثيرا على ألسنة الشعراء قديما ، كقول الشاعر :

---

(١) القاموس المحيط . الفيروزآبادى جـ ٢ ص ١٨٣ ط دار الجيل
(٢) الصحاح . الجوهرى جـ ٣ ص ٨٨٠ ط ٣/١٩٨٤ دار العلم للملايين
(٣) العمدة ص ٢١٠ ط ١/١٩٢٥ .

أشارت بطرف العين خيفة أهلها
اشارة مذعور ولم تتكلم

فأيقنت أن الطرف قد قال مرحبا
وأهلا وسهلا بالحبيب المتيم(٤)

فالاشارة فى البيتين استخدمت بغرض افهام بعض الناس المعنى المراد دون البعض ، ومن ثم تكون الاشارة احدى طرق الدلالة التى تساعد على الافصاح والابانة •

وقد عقد « قدامة بن جعفر » فى كتابه (نقد النثر)(٥) بابا عرض فيه لمعنى الرمز ، لغة واصطلاحا ، ففسره لغويا بأنه « ما أخفى من الكلام » ، ثم قال : « وانما يستعمل المتكلم الرمز فى كلامه فيما يريد طيه عن كافة الناس والافضاء به الى بعضهم ، فيجعل الكلمة أو الحرف اسما من أسماء الطير أو الوحش أو سائر الأجناس أو حرفا من حروف المعجم ، ويطلع على ذلك الموضع من يريد افهامه، فيكون ذلك قولا مفهوما بينهما مرموزا عن غيرهما »(٦) •

---

(٤) البيان والتبيين • الجاحظ ج ١ ص ٧٠ ط أولى تحقيق حسن السندوبى •

(٥) هناك خلاف حول نسبة الكتاب الى « قدامة » ، فقد نسب د/ حفنى شرف الكتاب الى اسحاق بن وهب الكاتب • وقام بتحقيقه • بينما حققه د/ طه حسين والأستاذ العبادى ونسباه الى قدامة بن جعفر •

(٦) نقد النثر ص ٦١ ، ٦٢ تحقيق د/ طه حسين ، أ/ عبد الحميد العبادى •

وفى كتابه « نقد الشعر » يشير الى المصطلح الأدبى ، فيعرف الاشارة — وهى معنى الرمز — فيقول : « أن يكون اللفظ القليل مشتملا على معان كثيرة بايماء اليها ، أو لمحة تدل عليها ، كما قال بعضهم ووصف البلاغة فقال : « هى لمحة دالة »(٧) .

فهو يعنى الايماء الى المعانى الكثيرة بألفاظ قليلة تدل عليها وتنبىء عنها ، وبالتالى فهو يعنى بالاشارة — التى هى معنى الرمز — الايجاز .

أما « ابن رشيق » فقد خطا خطوة أوسع فى تعريفه للاشارة الأدبية ، حيث يقول : « وهى فى كل نوع من الكلام لمحة دالة واختصار وتلويح يعرف مجملا ، ومعناه بعيد من ظاهر لفظه »(٨) .

فهو لم يقصر الاشارة — كما ترى — على الايجاز وحده ، وانما أضاف اليه شيئا آخر ، وهو أن يكون المعنى بعيدا عن ظاهر اللفظ .

اذن مفهوم الرمز هو غير المباشرة فى التعبير . وليس من هدف البحث أن نعرض لمفهوم الرمز قديما وحديثا بالتفصيل ، أو أن نتعقب الرمزية كمذهب أدبى ، فنرصد بداياته واتجاهاته الفنية والفكرية والجمالية وغيرها . فذلك أمر لا يتسع له هذا البحث ، فضلا عن أنه

---

(٧) نقد الشعر ص ٩٠ ط دار المكشوف . بيروت .

(٨) العمدة جـ ١ ص ٢٠٦ .

ليس من غاياته ، وانما أردت عبر هذه المداخلة الى القول بأن الكلمة عند الرمزيين لا تحمل المعنى المباشر المقصود منها عند سماعها لأول وهلة ، بل تتجاوز ذلك المعنى الموضوع لها والمتعارف عليه ، وبالتالى تزداد مساحتها التعبيرية حسب انفعال الأديب الرمزى واخضاعه التركيبى لها •

والواقع أن مذاهب الأدب فى أوربا قد تعددت ، وتباينت اتجاهاتها ، خاصة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر الميلادى•

وهذه المذاهب الأدبية الأوربية لم تكن لتنشأ من فراغ ، بل وجدت عوامل وأسباب معينة دعت اليها فى بيئاتها لتنمو وتأخذ أشكالا مختلفة ، لكل مذهب خصائص تميزه عن غيره •

والمذهب الرمزى يعد أهم مذهب فى الشعر بعد الرومانتيكية ، وقد استقر فى الآداب الأوربية أواخر القرن التاسع عشر ، ويعد « شارل بودلير » ١٨٢١ — ١٨٦٧ رائد المذهب الرمزى فى فرنسا ، وتعد قصيدته (العلاقات) أساسا للأدب الرمزى(٩) •

وقد تحمس للمذهب طائفة من الشعراء أمثال : « رمبو » و « ملارمه » و « بورا » وغيرهم •

---

(٩) راجع المذاهب النقدية بين النظرية والتطبيق د/ فرهود ص ١٠٩ ط ١٩٧٣ •

أشـــكال الرمزية :

الواقـــع أن الأدب الرمزى فى العصر الحـــديث قد اتخذ ثلاثة أشـــــكال :

الشـــكل الأول :

شكل الرمز البيـــانى ، وهو ما عرفه أدبنا العربى بعامة خـــلال عصوره المختلفة ، والذى اتسع مفهومه لدينا باتساع نظرتنا الأدبية .

الشـــكل الثـــانى :

شكل الرمز الموضوعى ، وفيه يمتد الرمز الى المشكلات الانسانية والأخلاقية العامة ، يعالجها بوساطة الخيال وتصوراته .

الشـــكل الثـــالث :

شـــكل الرمز الضـــبابى ، وفيه يسترســـل الرامزون بهواجس أنفسهم فى ألفاظ غامضة مبهمة ، ووسيلتهم الى هذا القاء الضباب الكثيف حول المعانى بما يجهـــد المتـــذوق فى تقصى ما وراء ألفاظهم ، عن طريق اســـتعمال غير المـــألوف من الوصف والمجـــاز ، وغموض الاشارة ، والابعاد فى الدلالة ، واستغلال الايقاع الصـــوتى بهدف الانعتاق من قيود المعتـــدل والمحمود ، والتوصل الى أغوار الشـــعور

الانسانى كلما أوغلوا ، ونشر العدوى النفسية ، ونقلهـا من المنشىء الى المتذوق(١٠) .

والذى يخص بحثنا من هذه الأشـكال الثلاثة ، الشكل الثانى وهو الرمز الموضوعى ، الذى يقصد فيه الشاعر الى اخفاء موضوع قصيدته بحيث لا يستطيع الا الأقلون ادراك مقصده الخفى ومعناه المتبـاعد .

ويذكر الأستاذ / « مصطفى السحرتى » أن الشعراء منهم من قصر رمزيته على الترنيم الموسيقى الآسر ، ومنهم من وقف رمزيته على التعبـير أو الصـورة ، ومنهم من بث الرمزية فى موضـوعه أو تجربته مع الابقـاء على الصـياغة المـألوفة ، ومنهم من اتبع الرمزية أسلوبا وموضوعا(١١) .

أما الدكتـور / « درويش الجنـدى » ، فيقـول عن الرمزية الموضوعية : « أعنى بهذا النوع من الرمزية ما استغرقت فيه ظاهرة غير المباشرة فى التعبير الموضوع كله »(١٢) .

وهكذا يتضح لنا أن هناك رمزية موضوعية ، من خلالها يخفى الشاعر موضوع قصيدته عبر القصيدة كلها ، وبالتالى لا يصـل الى

---

(١٠) المرجع السابق ص ١٢٣ وما بعدها .
(١١) الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث ص ١٢٥ ط ١٩٤٨م
(١٢) الرمزية فى الأدب العربى ص ٥٢ ط دار نهضة مصر .

لكنه هذا الموضوع الا فئة خاصة تستطيع أن تفطن الى ما يهدف اليه الشاعر ويرمز اليه فى قصيدته •

هذا ، وللرمزية أصول فى أدبنا العربى القديم خاصة عند أمثال: الحلاج ، والجنيد ، والخيام ، وابن الفارض ، وابن عربى وغيرهم ، وقد حاول بعض الباحثين دراسة الرمزية فى الأدب العربى القديم ، وانتهوا فى هذا الصدد الى نماذج محدودة ، نجد طرفا منها فيما يدعونه بالرمزية الأسلوبية ، ويقصدون بها مجازية التعبير ، والرمزية الموضوعية ويعنون بها قصص الأمثال والألغاز(١٣) •

وقد عرف النقاد العرب القدامى (الرمزية) وألموا ببعض خصائصها الماما مناسبا ، واستحسنوا من الشعر ما غمض معناه وأدى الى التفكر وامعان النظر بحيث لا يستشف المعنى الا بعد طول معاناة •

وقد تحدث « عبد القاهر الجرجانى » ، و «ابن سنان الخفاجى» وغيرهما عن الغموض فى الشعر ، خاصة اذا كان نابعا من دقة الفكرة وعمقها(١٤) •

---

(١٣) راجع : الرمز والرمزية فى الشعر المعاصر د/ محمد فتوح أحمد ص ١٦١ ط ٢/١٩٧٨ •

(١٤) راجع : أسرار البلاغة ص ١١٨ وما بعدها ، ودلائل الاعجاز ص ٥٢ وما بعدها ، وسر الفصاحة ص ٢٥١ وما بعدها •

أما فى العصر الحديث فقد تأثر أدبنا العربى بالرمزية الغربية نتيجة لتفتح أعين بعض أدبائنا على الثقافة الغربية بما تحمله هذه الثقافة من اتجاهات مذهبية وفكرية ، ونتيجة للكبت السياسى والاجتماعى الذى عانته البلاد العربية دهرا طويلا فى ظل الاستعمار الأوربى ، ومن ثم وجد الشعراء من الرمزية متنفسا لهم بعد أن اطلعوا على روائعها وأعجبوا بنزعاتها فتأثروا بها وأخذوا عنها .

وفى المهاجر الأمريكية التى هاجر اليها كثير من اللبنانيين والسوريين فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، اهتم بعض أدباء العرب فى مهاجرهم بالرمزية ، ولا غرو فى ذلك ، فقد اتصلوا بالثقافة الغربية فى مهدها ، واطلعوا على آدابها ، وواكبوا تياراتها بحكم اقامتهم فى الغرب ، ومن ثم استلهموا قيم الثقافة الغربية وآدابها ، واستوحوا مبادئها ، وأفكارها ، ومعانيها فيما أفرزوه من نتاج فنى وأدبى .

وقد لاقت الرمزية هوى فى نفوس أدباء المهاجر ، وقد رمزوا الى كثير من المعانى والقضايا القومية والاجتماعية ببعض الألفاظ ، كلفظ « الغاب » الذى استعملوه كثيرا فى أشعارهم للدلالة على الوطن الأم . و « الطين » الذى رمزوا به الى المساواة بين الناس جميعا . و « الضفادع » وهو أحد رموز التهكم والسخرية والنقد الاجتماعى ، وغير ذلك من الألفاظ التى استخدموها فى قاموسهم الشعرى .

والواقع أن شعراء المهاجر الشمالى كانوا أكثر ميلا ونزوعا الى

الرمزية من شعراء المهاجر الجنوبى الذين نحوا فى بعض نتاجهم الأدبى منحى رمزيا ، غير أنهم كانوا أقل عناية بالرمزية من اخوانهم فى المهاجر الشمالى .

وقد ذهب كثير من الدارسين الى أن « جبران خليل جبران » يعد أبرز أدباء المهاجر عناية بالرمزية ، وأول من أقام صرح الرمزية فى الأدب العربى الحديث ، ووضع حجر أساسها ، وشيد بناءها فيه ، ومن ثم فهى مدينة فى نشأتها اليه(١٥) .

ويذكر مارون عبود أن « جبران » مؤسس مدرستين فى لغة الضاد : الرومانتيكية والرمزية(١٦) .

ويرى د/ عيسى الناعورى أن « جبران » ابتدع فى الأدب أسلوب الرمز الشفاف(١٧) .

ويقول د/ اسماعيل أدهم : (فى كتابات جبران ظهرت الرمزية للمرة الأولى فى الأدب الحديث مختلطة بنزعة رومانتيكية تخييلية)(١٨) .

---

(١٥) راجع : الرمز والرمزية فى الشعر المعاصر ص ١٨٥ .

(١٦) جدد وقدماء ص ٧٢ . دار الثقافة بيروت ١٩٥٤ .

(١٧) أدب المهجر ص ٦١ ، ٦٦ .

(١٨) توفيق الحكيم د/ اسماعيل أدهم ص ٣٠ سعد بمصر ط ١٩٤٥ .

والواقع أن « جبران » و « ميخائيل نعيمة » و «ايليا أبوماضى» من أكثر شعراء المهاجر تأثرا بالرمزية الغربيـــة ، ومن أغزرهم ابداعا فى هذا المجال ، يقول نعيمة : (ان اللغة مستودع رموز نرمز بها الى أفكارنا وعواطفنا)(١٩) .

لذا فسوف نعرض من خلال بحثنا هـــذا لنماذج عديدة من شعر هؤلاء الشعراء الثلاثة للدلالة على ما نبغى توضيحه ونهـــدف اليه من وراء هذا البحث .

والواقع أن هؤلاء الشعراء الثلاثة اتجهوا فى كثير من موضوعات قصائدهم اتجاها رمزيا ، وهـــذا البحث (موضوعية الرمز ودلالتـــه فى نماذج من شعر المهاجر) يتناول بعض القصائد التى نهج فيهـــا أصحابها الى الرمز الموضوعى من خلال القصيدة كلها . فالذى أعنيه بموضـــوعية الرمز ، أن العمـــل الأدبى كله يرمز الى شىء معـــين ، أو فكرة محددة ، فالشـــاعر من خلال قصـــيدته برمتها يرمز الى فكرة واحـــدة .

وتعد مواكب « جبران » احدى القصائد التى تمثل ذلك الاتجاه اذ أنه أقام الحوار فيها بين صوتين : صوت الشيخ الخارج من المدينة مثقلا بهمومها وآلامها ومســـتنكفا من شرورها ، وصوت الفتى المرح الخارج من الغاب ، يعزف على نايه أنغام السعادة المطلقـــة ، والحب

---

(١٩) الغربال ص ٩٠ .

اللامتناهى داعيا الناس الى الغاب حيث تتساوى الحياة وتنسجم فينشأ عن تساويها وانسجامها الخير المطلق .

يقول جبران عن حياة الغاب فى مواكبه(٢٠) :

ليس فى الغابات موت ... لا ولا فيها القبور
فاذا نيسان ولى ... لم يمت معه السرور
ان هول الموت وهم ... ينثنى طى الصدور
فالذى عاش ربيعا ... كالذى عاش الدهور

والواقع أن « الغاب » فى مواكب جبران لا يبتعد عن كونه رمزا لوطنه الأم « لبنان » أو الآلهة الأم التى يتطلع جبران الى الاتحاد بها ليحظى بالسعادة والخلود كما يزعم .

يقول د/ شوقى ضيف : « وما هذا الغاب الذى ينفى عنه الموت ويثبت له الخلود الا لبنان العزيز الذى اندمجت حياته فيه ، وكأنه لا يعيش فى نطاق نفسه انما يعيش فى نطاق وطنه متحدا به حياة وفناء ، ووجودا وعدما »(٢١) .

ويواصل جبران حديثه عن حياة الغاب ، فيقول :

---

(٢٠) قصيدة « المواكب » فى المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران م ١ ص ٣٥٢ ـ ٣٦٤ .

(٢١) دراسات فى الشعر العربى المعاصر ص ٢٦٦ ط ٥/١٩٧٤

ليس فى الغـابات حـزن
لا ولا فيهـا الهمـوم
فاذا هـب نسـيم
لم تجىء معه السـموم
ليس حـزن النفس الا
ظـل وهـم لا يـدوم
وغيـوم النفس تبـدو
من ثنـاياها النجـوم

فالغاب فى رؤاه هو موطن الفضـائل والقيم المثلى ، والحيـاة الكريمـة .

ويتحدث « جبران » عن جمال « الغاب » الذى هو جمال وطنه « لبنان » بمناظره الطبيعية الخلابة ، فيقول على لسان الفتى :

هل تخـذت الغـاب مثلى
منزلا دون القصـور
فتتبعت السـواقى
وتسـلقت الصـخور
هـل تحممت بعطـر
وتنشـقت بنـور
وشربت الفجـر خمـرا
فى كـؤوس من أثـير

هل جلست العصر مثلى
بين جفنات العنب
والعناقيد تدلت
كثريا الذهب
فهى للصادى عيون
ولمن جاع الطعام
وهى شهد وهى عطر
ولمن شاء المدام
هل فرشت العشب ليلا
وتلحفت الفضا
زاهدا فيما سيأتى
ناسيا ما قد مضى
وسكون الليل بحر
موجة فى مسمعك
وبصدر الليل قلب
خافق فى مضجعك ؟

وهكذا يرسم « جبران » صورة رمزية لجمال الحياة فى الغاب بوصفه رمزا لوطنه لبنان ، وهو يستمد عناصر هذه الصورة من الطبيعة السواقى ، الصخور ، جفنات العنب ، عناقيد العنب ، وتتضافر عناصر الصورة وتتعاون على الايحاء بجمال الحياة فى الطبيعة ، حيث تصبح هذه الصورة لوحة فنية متكاملة الجوانب ترمز للحنين الى معاهد الطفولة ومراتعها فى ربوع الوطن .

ولم يرمز « جبران » وحده بالغاب الى الوطن ، وانما تابعه فى ذلك كثير من شعراء المهاجر من أمثال ميخائيل نعيمة ، وايليا أبو ماضى وغيرهما ، وها هو ذا « نعيمة » يتناول « الغاب » فى احدى قصائده، فيقول :

هو ذا قد أقبل أترابى
أهلا أهلا بأصيحابى
الناس تسير الى القدا
س ونحن نكر الى الغاب
أشجار الغاب تحيينا
وطيور الغاب تناجينا
وزهور الغاب تصافحنا
ونصافحها وتهنينا
الريح تمر بنا خببا
فيميس الحور لها طربا
والشمس بلطف تلثم أو
جهنا وتذر لنا ذهبا
أغصان الغاب تلاعبنا
وهوام الغاب تداعبنا
وصخور الوادى تدعونا
وصدى الأجراس يعاتبنا
ها هم أترابى قد سرحوا
فى الغاب يقودهم المرح

وبقيت أنا وحدى سكرا
نا يرقص فى قلبى المرح
فجلست على كتف النهر
ما بين العوسج والزهر
العالم مملكتى وأنا
سلطان العالم والدهر(٢٢)

وهكذا يظهر « نعيمة » حبا عميقا لهذا الغاب ، هذا الحب يصل الى درجة العبادة والتقدير بهذا الغاب باعتباره رمزا لوطنه «لبنان» • (وما هذه المملكة الا لبنان التى حلم بها الشاعر حلما ذهبيا • بل انها لترتفع متوهجة أمام عينيه فى اليقظة فيملأ البشر قلبه ، وتعود اليه ذكرياته مع صحبه هناك ، وهم يجتمعون أسرابا أسرابا ، وكأنهم يجتمعون فى قداس)(٢٣) •

وكذلك سلك « أبو ماضى » ، فقد رمز بالغاب الى وطنه «لبنان» فيقول فى قصيدة له بعنوان « الغابة المفقودة » :

يا لهفة النفس على غابة
كنت وهندا نلتقى فيها

---

(٢٢) ديوان همس الجفون • ميخائيل نعيمة ص ٣٨ ، ٣٩ ط بيروت ١٩٤٣ •

(٢٣) دراسات فى الشعر العربى المعاصر ص ٢٦٧ •

أنا كما شاء للهوى والصبا
وهى كما شاءت أمانيها
تكاد من لطف معانيها
يشربها خاطر رائيها
آمنت بالله وآياته
أليس أن الله باريها
نباغت الأزهار عند الضحى
متكئات فى نواحيها
ألوى على الزئبق نسرينها
والتف عاريها بكاسيها
واختلجت فى الشمس ألوانها
كأنها تذكر ماضيها
تألفت فالماء من حولها
يرقص والطير تغنيها
من لقن الطير أناشيدها
وعلم الزهر تآخيها ؟

ويسترسل فى قصيدته الى أن يقول :

لله فى الغابة أيامنا
وما عابها الا تلاشيها
طورا علينا ظل أدواحها
وتارة عطف دواليها
وتارة نلهو بأعنابها
وتارة نحصى أقاصيها

تسكت اذ تشكو شحاريرها
كأنما التغريد يؤذيهـــا(٢٤)

والقصيدة طويلة ، اذ استرسل « ايليا » من خلالهـا فى وصف هذه الغابة المفقودة ، وهذا الوصف لا يشك من يقرؤه أنه انما يصف « لبنان » بشحاريره وجباله وأوديته وفاكهته الشهية وأضوائه وأكاليل زهوره ، وما يزال حتى يأسى لمـا أصـاب غابته ، فقـد ولى زمان الهوى وامتدت يد الانسان فاستأصلت شجر الغابة ، وطردت الطير من أعشاشها ، وأقامت الدور والقصـور ، وهـذا كله انمـا هو رمز المدنية الأمريكية الجديدة ، ولبنان الطريدة جنة الأحلام السندسـية التى نزع منها الشاعر قبل الأوان .

وهكذا اتخذ هؤلاء الشعراء من لفظ « الغاب » رمزا الى الوطن الأم « لبنان » الذى ابتعد عن أنظـارهم ، بينما حبـه يملأ قلوبهم ومشاعرهم ويسيطر على كل وجدانهم ، ولذلك تغنوا به فى أشعارهم عبر ألحـان موسـيقية عذبة أفاضـوا عليهـا كثيرا من أحاسيسـهم وعواطفهم الملتهبة .

وقد اتضح جليا أن قصائد هؤلاء الشعراء قصـائد موضوعية ، اذ أن القصيدة برمتها ترمز الى فكرة محددة ، وموضوع بعينه .

---

(٢٤) ديوان ايليا أبى ماضى ص ٨٠١ دار العودة . بيروت ط ١٩٨٦

ومن القصائد ذات الرمز الموضوعى فى شعر « ميخائيل نعيمة» قصيدته « أوراق الخريف » ، والتى يقول فيها :

تتـــاثرى تنـــــاثرى يا بهجـــة النظر
يا مرقص الشمس ويا أرجوحـــة القمـــر
يا أرغن الليـــل ويا قيثـــارة الســـحر
يا رمز فـــكر حـــائر ورسم روح ثائر
يا ذكـــر مجـــد غابر قد عافك الشـــجر
تناثرى تناثرى (٢٥)

فهو يرمز من خلال القصيدة الى فكرة محددة ، حيث يصور فيها أطوار حياة الانسان المتقلبة ، ويتخذ من « أوراق الخـــريف » رمزا للتحول والتجدد فى صور الحياة الانسانية •

وفى نهاية القصيدة يتوجه « نعيمة » بهذا الخطاب الى أوراق الخريف فيقول :

عودى الى حضـــن الثرى
وجـــــددى العهـــــود
وانسى جمـــــالا قد ذوى
ما كـــان لن يعـــــــود

---

(٢٥) ديوان همس الجفون ص ٤٤ •

كم ازدهـرت من قبـلك
وكـم ذوت ورود
فلا تخـافى ما جـرى
ولا تلومى القـدرا
من قد أضـاع جـوهرا
يلقـاه فى اللحـود
عودى الى حضـن الثرى(٢٦)

يقول د/ عيسى الناعورى « وأوراق الخريف تلك التى اعتـاد الشـعراء أن يتخـذوا منها رمزا للآمال المحطمة فى النفس الكئيبـة ، يناجيها نعيمة مودعا وفى وداعه ينثر لنا حكمة الروح التى ترى أن كل شىء فى الحياة يجرى وفق خطـة مرسومة فى لوح القدر من قـديم الأزل ... »(٢٧) .

وأما قصيدة « نعيمة » (الى دودة) ، والتى يقول فيها :

تدبين دب الوهن فى جسمى الفانى
وأجرى حثيثا خلف نعشى وأكفـانى
فأجتاز عمـرى راكضـا متعثـرا
بأنقـاض آمالى وأشـباح أشـجانى

---

(٢٦) المصدر نفسه ص ٤٤ .
(٢٧) أدب المهجر ص ١٠١ .

وأنت التى يستصغر الكل قـــدرها
ويحسبها بعض زيادة نقصـــان
تدبين فى حضن الحيـــاة طليقـــة
ولا هـم يفنيـك بأســـرار أكوان
وما أنت فى عين الحيـاة ذميمـة
وأصغر قـــدرا من نور وعقبـــان
فلا التبر أغلى عندها من ترابهـــا
ولا المـاس أسنى من حجارة صوان
هبل استبدلت يوما غرابا ببلبـل
وهل أهملت دودا لتلهو بغزلان ؟
وهل أطلعت شمسا لتغرق موســـجا
وتملأ ســـطح الأرض بالآس والبان ؟
لعمرك يا أختـــاه ما فى حيـــاتنا
مراتب قـــدر أو تفـــاوت أثمـــان
مظاهرها فى الكون تبـــدو لناظـــر
كثيرة أشـــكال عـــديدة ألـــوان
واقنومها باق من البـــدء والحـــا
تجلـت بشـهب أم تجلـت بديـدان
وما ناشـــد أبســـرارها وهوى كشفها
سوى مشتر بالمـاء خـــرقة عطشان(٢٨)

---

(٢٨) المصدر نفسه ص ٧٤ ـ ٧٧ .

فالذى يمعن النظر فى أبيات القصيدة وأفكارها يدرك أنها رمز للمساواة بين جميع المخلوقات فى الكون ، وهـذه الفـكرة ربما يكون « نعيمة » قـد استمدها من ايمانه بوحدة الوجود .

أما قصيدته « النهر المتجمد » والتى يقول فيها :

يا نهر هل نضبت ميـاهك فانقطعت عن الغرير
أم قد هرمت وخار عزمك فانثنيت عن المسـير ؟
بالأمس كنت مرنما بين الحـدائق والزهـور
تلهو على الدنيا وما فيها أحاديث الدهـور
بالأمس كنت تسير لا تخشى الموانع فى الطريق
واليوم قد هبطت عليك سـكينة اللحـد العميق
بالأمس كنـت اذا أتيتـك باكيـا سـليتنى
واليـوم صرت اذا أتيتك ضـاحكا أبكيتنى

وهى قصيدة طويلة يخاطب النهر فى نهايتها قائلا :

يا نهـر ذا قلبـى أراه كما أراك مكبـلا
والفرق أنك سوف تنشط من عقالك وهو لا ؟ ! (٢٩)

وترى « د/ نادر السراج » أن القصيدة رمز لطبيعة لبنـان فى فصل الشتاء وما يعترى أنهارها من تجمد مياهها (٣٠) .

---

(٢٩) المصدر نفسه ص ١٠ .
(٣٠) شعراء الرابطة القلمية ص ١٩٩ ط دار المعارف ١٩٥٧ .

بينما يرى د/ أنس داود أن الشاعر رأى فى تجمد النهر رمزا لتجمد الحياة الانسانية فى روسيا(٣١) •

والواقع أن الشاعر يرمز من خلال قصيدته تلك الى اليأس والحزن والأسى وتحطم الآمال فى النفس الحزينة وتجمدها • وربما يكون قد استوحى هذا المعنى من الحياة المتجمدة فى روسيا خلال فصل الشتاء ، وقد أقام « نعيمة » فى روسيا عدة سنوات ، بل ان القصيدة نظمت أولا بالروسية •

أما الشاعر « ايليا أبو ماضى » فله العديد من القصائد ذات الرمز الموضوعى • ومن النظرة الأولى فى ديوانه يقف الدارس على نماذج كثيرة فى هذا الميدان • وسوف نعرض لطائفة منها حتى نتبين كيف كان الشاعر يرمز بعمله الأدبى كله الى فكرة محددة وهدف واحد ، وسوف نشير الى هذه الأفكار وتلك الأهداف فيما سنعرض له ما استطعنا الى ذلك سبيلا •

فى قصيدته « التينة الحمقاء » ، والتى يقول فيها :

وتينة غضة الأفنان باسقة
قالت لأترابها والصيف يحتضر

بئس القضاء الذى فى الأرض أوجدنى
عندى الجمال وغيرى عنده النظر

---

(٣١) الطبيعية فى شعر المهجر ص ٥١ ـ الدار القومية للنشر •

لأجلسن على نفسى عوار فيهـا
فلا يبين لها فى غـيرها أثـر
كم ذا أكلف نفسـى فـوق طاقتهـا
وليس لى بل لغيرى الفىء والثمـر
لذى الجناح وذى الأظفار بى وطـر
وليس فى العيش لى فيما أرى وطر
انى مفصـلة ظلى على جسدى
فلا يكون به طـول ولا قصـر
ولست مثمرة الا على ثقـة
أن ليس يطرقنى طير ولا بشر
عاد الربيع الى الدنيـا بموكبه
فازينت واكتست بالسندس الشجر
وظلـت التينـة الحمقاء عـارية
كأنها وتد فى الأرض أو حجر
ولم يطق صاحب البستان رؤيتها
فاجتثها فهوت فى النار تستعر
من ليس يسخو بما تسخو الحياة به
فانه أحمق بالحـرص ينتحـر (٣٢)

نرى الشاعر يعرض لنا قصة تينة أصابها الحمق والغرور فأرادت أن تمنع خيرها عن الناس فامتنعت عن اخراج الثمر فى ابانه ، فرآها

---

(٣٢) ديوان : ايليا أبى ماضى ص ٣٣٧ .

صاحبها بلا فائدة فاجتثها من جذورها لينتفع بها في شيء آخر ، وأطعمها النار كي يستدفيء بها ، وهكذا قضت عليها حماقتها • وهو يريد من وراء ذلك تنبيهنا الى أن الانسان اذا منع خيره عن الحياة والبشر فالموت أولى به •

فهو يرمز بالقصيدة الى الشحيح الأحمق الذى يتكالب على الحياة ولا يهب مما وهبته فيموت محروما منتحرا بحرصه وبخله •

وفى قصيدة له بعنوان (الأبريق) نراه يتخذ من الأبريق رمزا للمتكبر المغرور الذى نسي أصله وتعالى على البشر • فيقول :

ألا أيها الأبريق ملكت والصلف
فما أنت بلور ولا أنت من صدف
وما أنت الا كالأباريق كلها
ترابٍ مهين قد ترقى الى خزف
أرى لك أنفا شامخا غير أنه
تلفع أثواب الغبار وما أنف
وفيك اعتزاز ليس للديك مثله
ولست بذى ريش تضاعف كالزعف
ولا لك صوت مثله يصدع الدجى
وتهتف فيه الذكريات اذا هتف(٣٣)

---

(٣٣) المصدر السابق ص ٥٠٠ •

فالشاعر يسخر من المتكبر المتعجرف الذي ينسى أصل خلقه من الطين ، ويذكره بأنه ليس له مزية على المخلوقات ، فما هو بلور ولا صدف ، بل مثل الناس جميعا من طين ، فلماذا اذن التعالى عليهم ؟ ثم انه يقرن بينه وبين الديك فى الاعتزاز بالنفس ، وان كان الديك أقل منه شعورا بهذا الاعتزاز ، مع أنه لا يملك ما يملكه الديك من مظاهر الأبهة والعظمة .

وهكذا من خلال هذا العرض الساخر لحالة الأبريق المتوهمة التى رمز بها الشاعر الى انسان مغرور ، دفعنا الى الاشمئزاز منه والاعراض عنه .

ومن قصائده ذات الرمز الموضوعي ، قصيدته « المساء » وهى رمز للكهولة المؤذنة بانقضاء العمر ، وما يصاحب ذلك من الأسى والحزن ، يقول فى مطلعها :

السحب تركض فى الفضاء الرحب ركض الخائفين
والشمس تبدو خلفها صفراء عاصبة الجبين
والبحر ساج صامت فيه خشوع الزاهدين
لكنما عيناك باهتتان فى الأفق البعيد
سلمى ... بماذا تفكرين
سلمى ... بماذا تفكرين
أرأيت أحلام الطفولة تختفى خلف النجوم
أم أبصرت عيناك أشباح الكهولة فى الغيوم

أم خفت أن يأتى الدجى الجـانى ولا تأتى النجـوم
أنا لا أرى ما تلمحـين من المشـــاهد انمـــــا
أظـــلالها فى ناظـــريك
تنـــم يـا سـلمى عليـــك

ويسترسل الشـاعر فى سرد هـذه المشاهد ثم يختتم قصـيدته قـــائلا :

مات النهـار ابن الصباح فـــلا تقولى كيف مـات
ان التـأمل فى الحيـــاة يزيد أوجـاع الحيـــاة
فدعى الكآبة والأسى واسترجعى مرح الفتـــــاة
فيـه البشاشة والبهـــاء
ليكن كذلك فى المساء(٣٤)

فالشاعر اتخذ من « المســاء » رمزا للفناء القريب والشيخوخة ، وقـدم الينا وجدانه فى فكرة مبسطة عرضها من خـلال فتاة تجلس فى لحظـة المغيب ، وقد عزفت عن كل مباهج الحياة لأنها أحست بخلو حياتها من الأمل فهى متشـــائمة ، لا تنظر الا الى الجـانب المعتم فى دنياها وهو ينصحها أن تقلع عن الكآبة والحزن وتقبل على الحيـاة ؛ لتسعد بما فيهـا .

---

(٣٤) المصدر نفسه ص ٧٦٤ ـ ٧٦٨ .

أما قصيدة « الحجر الصغير » فهى رمز للانسان الذى يستصغر قدر نفسه ، ويتخلى عن أداء وظيفته فى الحياة ، فيؤدى ذلك الى خلل فى أركان المجتمع • يقول عن الحجر الصغير :

سمع الليل ذو النجوم أنينا
وهو يخشى المدينة البيضاء
فانحنى فوقها كمسترق الهمـ
ـس يطيل السكوت والاصغاء
كان ذلك الأنين من حجر فى اللـ
ـد يشكو المقادر العمياء
أى شىء يكون فى الكون شأنى
لست شيئا فيه ولست هباء
لا ورحام أنا فانحت تمثا
لا ولا صخرة تكون بناء
لست أرضا فأرشف الماء
أو ماء فأروى الحدائق الغناء
حجر أغبر أنا وحقير
لا جمالا ، لا حكمة ، لا مضاء
فلأغادر هذا الوجود وأمضى
بسلام انى كرهت البقاء
وهوى من مكانه وهو يشكو
الأرض والشهب والدجى والسماء

فتح الفجـــر جفنـــه ... فاذا
الطوفان يغشى المدينة البيضاء(٣٥)

فالشاعر هاله استصغار بعض الناس لوظائفهم فى الحيـــاة ، وامتهانهم لأنفسهم ، فأراد أن ينبهنا الى خطأ هـــذه النظرة ، وأن أى عمل فى الحياة مهما كان ضـــئيلا انما هو عنصر من عنـــاصر لا تكتمل الا به ، اذا غاب اختلت الحياة وفسدت •

والشاعر لم يشأ أن يلقى قضيته بالفكر المبـــاشر ، أو يعـــالجها معالجة فلسفية ، بل أراد أن يذهب عنها جفافها ، فأخرجها من خـــلال وجدانه فى صورة قصة ، لتكون أكثر اقناعا وتأثيرا ، فنقلع عن الزعم الخاطىء الذى آمنا به حين رفعنا أقـــدار الناس أو أهدرناها حسب ما يزاولون من أعمال ، فابتكر خياله حكاية حجر صغير فى ســـد مقام بين نهر وبلدة ، فأحس حقارته وصغره فى مكانه فبكى فى صمت الليل على ما أحس من ذلتـــه ومهانته ، وأخذ يحسد كل ما فى الوجود مما يظن أن له شـــأنا كبيرا ، ولمـــا رأى أنه تافه وحقير ولا قيمـــة له فى الوجود قرر التخلى عن موضعه من السد منتحرا ، فعم الطوفان البلدة وأغرقها • ولم يحدث ذلك الا من الشعور الخاطىء الذى ألم بالحجر الصغير • ومن ثم يجب أن نؤمن بأن لكل مكانه فى أمته وعليـــه أن يرضى بموضعه فى بناء الحياة الكبير •

---

(٣٥) المصدر نفسه ص ١٢١ •

أما قصيدته « الطين » فهى رمز للمساواة بين الناس والدعوة الى التواضع والاخاء ، فيقول :

نسى الطين ساعة أنه طين
حقير فصال تيها وعربد
وكسى الخز جسمه فتباهى
وحوى المال كيسه فتمرد
يا أخى لا تمل بوجهك عنى
ما أنا فحمة ولا أنت فرقد
أنت لم تصنع الحرير الذى تلـ
ـبس واللؤلؤ الذى تتقلد
أنت لا تأكل النضار اذا جعـ
ـت ولا تشرب الجمان المنضد
أنت فى البردة الموشاة مثلى
فى كسائى الرديم تشقى وتسعد
لك فى عالم النهار أمانى
ورؤى والظلام فوقك ممتد
ولقلبى كما لقلبك أحلا
م حسان فانه غير جلمد
أنت مثلى فى الثرى واليه
فلماذا يا صاحبى التيه والصد
أيها الطين لست أنقى وأسمى
من تراب تدوس أو تتوسد

سـدت أو لم تسد فما أنت الا
حيـوان مسـير مسـتعبد

ان قصرا سمكته سـوف يندك
وثوبا حبكته سـوف ينقـد

لا يكن للخصـام قلبـك مأوى
ان قلبى للحـب أصـبح معبـد

أنا أولى بالحب منك وأحـرى
من كساء يبلى ومالٌ ينفد(٣٦)

والقصيدة طويلة يقيم الشاعر من خلالها محاورة بين الغنى المتكبر والفقير الوديع ، وينتهى الى المساواة ، فلماذا الفخر والتيه والتعالى ؟ أليس من الأجدر والأجدى أن يغشى الناس التواضع ، ويعمهم الوفاء والاخاء ، خاصة وأن الناس جميعا يتساوون فى الخلق من مصـدر واحـد وهو الطين ، كما يتساوون فى الرجوع الى مكان واحد وهـو التراب ، وكلهم مصيرهم الى زوال ومآلهم الى موت وفناء .

وفى قصيدته « الضفادع والنجوم » ، والتى يقول فيها :

صاحت الضـفدع لمـا شـاهدت
حولها فى المـاء أطلال النجـوم

يا رفاقى يا جنـودى احتشدوا
عبر الأعـداء فى الليل التخـوم

---

(٣٦) ديوان « ايليا أبى ماضى » ص ٣١٦ .

فاطردوهم واطردوا الليل معا
انه مثلهم باغ أثيم
زعقة سار صداها فى الدجى
فاذا الشط شخوص وحسوم
فى أديم الماء من أصواتها
رعدة الحمى وفى الليل وجوم
فرق الفجر جلابيب الدجى
ومحا من صفحة الأرض الرسوم
فمشت فى سربها مختالة
كمليك ظافر بين قروم
ثم قالت لكم البشرى ولى
قد نجونا الآن من كيد عظيم
نحن لو لم نقهر الشهب التى
هاجمتنا لأذاقتنا الحتوم
وأقامت بعدنا فى أرضنا
فى نعيم لم تجده فى الغيوم
أيها التاريخ سجل أننا
أمة قد غلبت حتى النجوم(٣٧)

فالشاعر من خلال قصيدته يرمز الى الانسان الأجوف الذى

---

(٣٧) المصدر نفسه ص ٦٦٧ .

يتجاهل قيمة نفسه ويتطاول على أقدار ذوى المكانة العالية والمنزلة الرفيعة ، وكذلك قصيدته « الغدير الطموح » والتى يقول فيها :

قال الغدير لنفسه
يا ليتني نهر كبير
مثل الفرات العذب أو
كالنيل ذى الفيض الغزير
تجرى السفائن موقرات
فيه بالرزق الوفير
هيهات يرضى بالخير
من المنى الا الحقير
وانساب نحو النهر لا
يلوى على الموج النضير
حتى اذا ما جاءه
غلب الهدير على الخرير(٣٨)

فهى رمز ــ أيضا ــ للانسان الذى يطمح فوق طاقته فلا يجنى سوى المصاعب والمشاق ، ويتيه فى خضم لا طاقة له به فيفقد نفسه ويضيع .

أما قصيدته « الفراشة المحتضرة » فيقول فيها :

---

(٣٨) المصدر نفسه ص ٣٦١ .

لو كان لي غـير قلبى عنـد مرآك
لمـا أضـــاف الى بلواه بلواك
فيـم ارتجاجك هل فى الجو زلزلة
أم أنت هاربة من وجـــه فتـــاك
وكم تدورين حـــول البيت حائـرة
بنت الربى ليس مأوى الناس مأواك
قالوا فراشـة حقـل لا غنـاء بهـا
ما أفقر الناس فى عينى وأغنـــاك
فراشـة الحقل فى روحى كآبتـــه
ممـا عـراه ومما قـــد تولاك
أحببتـه وهو دار تلعبـــين بهـا
وسوف تهـواه نفسى وهو مثـواك
قـد بات قلبى فى دنيـــا مشوشة
منـذ التفت الى آثار دنيـــــاك
لا يستقر بهـا الا على وجـــل
كالطير بـين أحـــابيل وأشراك
خلـت أرائك كانت أمس آهـلة
غنـاء فاليـوم لا شاد ولا شاك
فيا رياح الخريف العاتيـات كفى
عصفا فقد كثرت فى الأرض قتلاك
كيف اعتذارك ان قال الاله غـــدا
هل الفراشة كانت من ضحاياك(٣٩)

---

(٣٩) ديوان ايليا أبى ماضى ص ٥٢٢ ـ ٥٢٤ .

وهى قصيدة طويلة اكتفينا بمقتطعات من أبياتها ، والشاعر يرمز من خلالها الى الفناء وما يتصل به من مشاعر الفقد والأسى والحزن .

وقصيدته « العليقة » وهى ــ أيضا ــ طويلة ، يقول فى مطلعها :

ذات شــوك كالحراب أو كأظفــار العقاب
ربطت فى الغاب كاللص لفتــك واســتلاب
تقطع الدرب على الفــلاح والمولى المهاب
صنت عنها حــر وجهى فتصــــدت لثيابى
كلمــا أفلت من نــاب تلقتنى بنــــاب
فلهــا نهش الأفاعى ولهــا لســع الذباب
وأذاها فى ســكونى كأذاها فى اضطرابى
وهى كالقيــد لساقى ولجيــدى كالسحاب
فكأنا فى عنــاق لا نضــال ووثاب(٤٠)

والعليقــة هى الشوكة التى تربض فى الغاب لتقطع على العاملين طريقهم ، والشاعر يرمز بها الى المرأة المنحرفة التى تقف فى طــريق الشباب الوثاب(٤١) .

أما قصيدته « العير المتنكر » والتى يقول فيها :

---

(٤٠) ديوان « ايليا أبى ماضى » ص ١٦٠ .
(٤١) راجع الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث ص ١٣١ .

زعم المؤدب أن عيرا ساءه
ألا يسار به الى الميدان
فمضى فقصرت القواطع ذيله
وسطت مواضيها على الأذان
حتى اذا جاء المروض واعتلى
متنيه راب الفارس الكسمان
لكنه ما زال غير مصدق
حتى علا صوت كصوت الجان
فاستل صارمه فطاح برأسه
ورمى بجثته الى الغربان
ما دام يصحب كل حى صوته
هيهات يخفى العير جلد حصان(٤٢)

فهى رمز للانسان الذى يخفى حقيقته ويظهر للناس غير ما يبطن ، ثم ينكشف أمره وزيفه ويظهر على حقيقته فينال الجزاء الذى يستحقه .

وقديما قال زهير بن أبى سلمى :

ومهما تكن عند امرىء من خليقة
وان خالها تخفى على الناس تعلم(٤٣)

---

(٤٢) ديوان « ايليا أبى ماضى » ص ٧١٩ .
(٤٣) ديوان زهير بن أبى سلمى ص ٧٧ دار القلم بيروت .

فمهما حاول المرء اخفاء سجاياه وخصاله عن الناس ، وتوهم أن أمره لن ينكشف فلابد من اليوم الذى تظهر فيـــه حقيقته ويقف الناس على أمره ، فالأخلاق لا تخفى ، كما أن التخلق لا يدوم ولا يبقى .

والواقع أن الشاعر : ايليـــا أبا ماضى له الكثـــير من القصـــائد الرمزية الموضوع ، ومن يطالع ديوانه الشعرى يقف على الكثير منها فى هـــذا الغرض ، وقد عبر فيها عن أفكاره ، ورمز من خلالها الى مراده ومبتغـــــاه .

بعد هذا العرض لتلك الطائفة من القصائد الشعرية « رمزية الموضوع » يمكن القول بأن هذه النماذج التى عرضنا لها نلمس فيها الميل الى الوضوح والشفافية أكثر مما تميل الى الابهام والغموض والتعمية ، فى الوقت الذى يرى فيه بعض الرمزيين أن فى الابهام والغموض الشديدين جمالا لا يتحقق فى الوضوح والافصاح .

ولعل اهتمام شعراء المهاجر بتقرير الفكرة وتأكيدها فى النماذج التى عرضنا لها ، والاهتمام بعلاقات الكلمات ودلالاتها أكثر من الاهتمام بعلاقات الصور قد نأى بهم بعيدا عن المغالاة فى الغموض والاخفاء .

والواقع أن الشاعر حين يلجأ الى الغموض والتعمية فان ذلك يعد عيبا ، « وقد ركب المذهب الرمزى متن الغلو والشطط حين اعتمد الابهام والغموض والتعمية هدفا ، وحين أنكر الوضوح والصراحة أسلوبا ، وحين جعل المجاز والاستعارة فنا يصطنعه ويقطع ما بينه وبين البداهة الصادقة والتخيل السليم ، وحين أعطى الرامز الحق فى أن يشطح فى مجاهل المعانى شطحا غير محدود »(٤٤) .

وقد اتضح — أيضا — من خلال النماذج التى عرضناها مدى اهتمام بعض شعراء المهاجر بالرمزية الموضوعية ، وكيف عالجوا من خلالها قضاياهم القومية ، والمتمثلة فى الحنين الى الوطن الأم .

---

(٤٤) المذاهب النقدية بين النظرية والتطبيق ص ١١٧ .

والتمرد على الظلم ، ورأينا كيف انتقدوا المعتقدات الخاطئة السائدة في المجتمع •

ولعلى بهذا العرض أكون قد أسهمت فى ابراز جانب من القصائد ذات الرمز الموضوعى عند بعض شعراء المهاجر ، وأبنت عما رمز اليه هؤلاء الشعراء من أفكار ومعان من خلال أعمالهم الأدبية التى ذكرناها فى ثنايا هذا البحث •

« وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين » •